الاتجاه الأنثروبولوجي للبيروني

أ.نورية السوالمية
جامعة معسكر

يعد البيروني من المفكرين المسلمين، فهو الفيلسوف والفلكي و الرياضي والجغرافي ... وكدا يعتبر عالم أنثروبولوجيا بامتياز، وقد خلف آثارا كثيرة لعل أهمها "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة كانت أو مرذولة"، وهي دراسة أنثروبولوجية، قصد فيها البيروني الهند ليتحقق من العجائب التي سمع عنها، فعاصر سكانها وتفاعل معهم وتعلم لغتهم وتعرف على عاداتهم وتقاليهم ووقف على أسرار حياتهم وثقافتهم وحضارتهم من خلال دراسة حقلية، وظف فيها تقنيات البحث الأنثروبولوجي كالملاحظة بالمشاركة.

وعليه نحاول من خلال هذه المداخلة تحليل دراسته تلك والوقوف على الحقائق القيمة التي توصل إليها، كما نحاول إثبات قيمتها في الحقل الأنثروبولوجي بالتطرق إلى النقاط التالية:

- ✓ البيروني: حياته وأثاره وعصره
- ✓ "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة كانت أو مرذولة" دراسة أنثروبولجية؟
- ✓ قراءة في نتائج دراسة البيروني

I. البيروني: حياته وأثاره وعصره

هو أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني من كبار العلماء في القرن الرابع والخامس الهجري، القرنان اللذان يعرفان الإزدهار الثقافي في ظل عصر الدويلات العباسي، وبرزت تجليات هذا التأثير في نصوص متعددة منها نصوص السرد القصصي والرمزي كألف ليلة، وكليلة ودمنة .. إلخ، فضلا عن بدايات لافتة وحيية للتأثيرات المهمة المتسربة في تصورات ورؤى الفلسفة الإسلامية، والتصوف الإسلامي، والرياضيات والفنون .. إلخ.

ولد البيروني في الثاني من ذي الحجة عام 362 هـ /973 م في منطقة يقال لها بيرون من توابع خوارزم ولذا لقب بالبيروني، وتعني "البراني" بالفارسية، أي الغريب، وذلك لأنه ولد وقضى صباه في خوارزم، لكنه اغترب عنها في شبابه، ولم يعد إلى بلده إلا في آخر عمره، فعدوه مغتربا، وتوفي البيروني سنة 440 هـ /1048 م بغزنة (كابل اليوم).

أخذ البيروني يتلقى العلوم والمعارف المتداولة في عصره بصورة جيدة ومما ساعده على اتساع دائرة معلوماته رحلاته الكثيرة واشتياقه المتدفق لاكتساب العلوم الذي بدأ معه منذ حداثة سنه. فكان منذ البداية يهتم بمسائل لم تكن معهودة ومعروفة بين المتعلمين في القرون الوسطى الإسلامية. في العشرين من عمره ترك موطنه قاصدا سواحل بحر الخزر، فاعتنى به في جرجان قابوس بن وشمغيز الزياري حتى أهدا إليه أول تأليف كبير له وهو "الآثار الباقية"، كما كانت له مكاتبات مع ابن سينا الذي كان معاصرا له. وفي عام 400 هـ عاد إلى وطنه ولكن سرعان ما عصفت به الفتن والمحن، وعندما جاء محمود الغزنوي ليحتل خوارزم في سنة 408 هـ/ 1017م، ساق بعض من كان فيها أسرى بمن فيهم البيروني وهكذا ينتهي هذا العالم إلى غزنة عاصمة محمود في أفغانستان. لكن البيروني ليس بالرجل الذي

يهدأ أو تعيقه المصائب عن مهماته فيبدأ بالكتابة وهو في طريقه إلى الأسر، وهكذا صار البيروني المنجم الرسمي لبلاط ذلك السلطان المتنور. ولاحقا حين غزا محمود الغزنوي بعض مناطق الهند، كان أبو الريحان في رفقته. وهناك كان اطلاعه على علوم الهند ودياناتها، ما أتاح له أن يقارن مع ما لدى الإسلام من ذلك، ولكن أيضا مع ما أثر عن اليونان في المجالات نفسها. ولقد واظب البيروني على القراءة والكتابة في بلاط الغزنويين حتى رحيله عن عالمنا.

وقد أجمع كل من ترجموا للبيروني على أنه نبغ في كل علوم عصره، فهو مع تبحره في العلوم الإنسانية، كان جل اهتمامه بالفكر العلمي من رياضيات وعلوم فيزيائية وطب وفلك، فضلا عن إتقانه العديد من اللغات القديمة (اليونانية والفارسية والهندية السنسكريتية) .. إلخ. وإن دائرة معلوماته واسعة للغاية بحيث أن تحديد عدد العلوم التي لم يكن يعرفها أسهل من العلوم التي عنى بها. وإن جل اهتماماته ونشاطاته العلمية كانت تتمحور في الرياضيات والنجوم والعلوم المتعلقة بها ولذا فقد اهتم في مجال الجغرافيا إلى الجانب الرياضي والنجومي فيه. له عدة مؤلفات ترجمت أغلبها إلى أهمّ اللّغات العالمية ولعلّ أهمّها: كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية "و "الصيدلة في الطب"، وكتاب "المسعودي في الهيئة والنجوم" و "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة".

II. "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" دراسة أنثروبولجية؟

يعد كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" للبيروني، كتاب لافت ومثير للانتباه سواء من حيث موضوعه أو في كيفية معالجته الظواهر، فهو موسوعة شاملة في العلوم والمعارف الكونية. ويعرف هذا الكتاب أيضا بـ"كتاب الهند" ألفه البيروني بعد انتقاله إلى بلاط السلطان محمود

الغزنوي سنة 421 هـ بـ "غزنة" وهي كابل عاصمة أفغانستان اليوم ولقد استفاد البيروني كما سبق الذكر من مرافقته السلطان الغزنوي في فتوحاته العسكرية في بلاد الهند . ويبدو من خلال ما صرح به البيروني في مقدمة كتابه أنه كتب هذا الكتاب استجابة لطلب أستاذه أبي العباس الإيرانشهري حتى يصحح فيه ما وقع فيه أستاذه من أخطاء بسبب نقله لروايات العوام.

ولقد حقق هذا الكتاب المستشرق الألماني إدوارد سخاو ونشره لأول مرة سنة 1887م في ليبزج، ثم صدر الكتاب سنة 1958م عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الركن دون تحقيق، وفي سنة 1983م نشرت دار " عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع " ببيروت الكتاب دون تحقيق أيضا.

يحدد المفكر والكاتب المسلم أبو الريحان البيروني منذ البداية، هدفه من كتابة الكتاب مؤكدا انه إذ زار الهند وكتب عنها، آثر أن يكون موضوعيا فيما يصفه وألا ينتقد إلا «عن ضرورة ظاهرة». غير أن البيروني، بالطبع، لم يف بوعده هذا، لأن معظم ما في فصول كتابه إنما ينطلق من مقارنات بين ما يشهده بأم عينيه في هذا العالم الغريب عليه الذي لم يكن له، أو لمواطنيه عهد به، وبين ما هو قائم في ديار الإسلام نفسها. ولسنا في حاجة إلى القول هنا طبعا، إن المفاضلة تكون دائما لمصلحة ديار الإسلام، وهو أمر لم يفت البيروني أن يقرره منذ عنوان كتابه. ويقر أيضا من خلال عنوان الكتاب بأن ما يصفه لنا إنما هو تحقيق ما يمكن أن يقال عن الهند وما يمكن أن يشاهد فيها ولكن عبر فرز ما هو معقول مما هو مرذول. والحال أن ما هو مرذول سيكون في سياق الكتاب كثير. ولكن هل حقا، يقف نص البيروني ضد ما هو مرذول، أم أن وصفه لهذا «المرذول» يحمل أحيانا شيئا من «التواطؤ الضمني» الخفي، يشي بما يريده البيروني لأمته ويراه عند الآخر؟

إن الوصف الذي يقدمه لنا أبو الريحان البيروني لذلك العالم الفسيح يبين بأن الواصف لم يكن رحالة عاديا، على غرار ابن بطوطة أو ابن جبير، أو حتى على غرار ابن فضلان، فهو نظر إلى الهند نظرة العالم والفيلسوف والرياضي والفلكي والجغرافي والمؤرخ. ولعل العالم فيه غلب على صفاته الأخرى، إذ أننا سرعان ما نراه ينهل من العلوم التي لاقاها وسمع عنها، واختبرها في الهند... وهي كلها علوم مفيدة. بيد أن البيروني، إذ يقرر فائدة هذه العلوم لا يفوته أن يشجب، في طريقه، بعض أساليب الحياة في الهند، ومعظمها يتعارض دينيا وروحيا مع تعاليم الإسلام.

ومنه يكون أبو الريحان من أوائل المفكرين المسلمين الذين رأوا دائما – وبصورة قد تبدو لنا اليوم انتقائية بعض الشيء – إن في الإمكان اقتباس أمور من حضارة ما، وترك أمور أخرى، على اعتبار أن ثمة انفصالا بين تلك الأمور .وهي النظرة ذاتها التي سيقول بها مفكرو عصر النهضة الإسلامية والعربية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حين يطالبون بأخذ علوم الغرب وتقدمه التقني، من دون اقتباس أخلاق هذا الغرب وعاداته الاجتماعية.

لقد تعلم البيروني في الهند اللغة السنسكريتية[1] إضافة إلى عدد من اللهجات واللغات الرائجة في شبه القارة، واطلع على علوم الهند وفنونها، ولم يتردد دون دراسة الديانات الهندية والفلسفات الرائجة هناك، قارئا عنها بلغاتها الأصلية، فكان واحدا من مفكرين مسلمين نادرين أتيح لهم أن يعرفوا الهند وثقافتها مباشرة، وليس بالواسطة، وهذا ما يعطي ما يقوله عن الهند صدقية كبيرة. ومع هذا يظل توخي الحذر ضروريا في التعامل مع كل التأكيدات التي يوردها البيروني حين يتحدث عن الحياة الاجتماعية والطقوس الدينية لدى شعوب ذلك الجزء من العالم. وفي المقابل، يمكن التوقف طويلا عند العلوم التي اطلع عليها البيروني عند ذلك الآخر، ووصفها بالتفصيل في كتابه هذا.

لقد قدم البيروني للفكر الإسلامي خدمات جلّى من خلال نظرته الثاقبة إلى ما شاهده واختبره في الهند، وهكذا نجده يوضح استخدام الأرقام الهندية، واستخدام الأصفار لمقام الخانات. وكذلك نجده يحسب السلسلة الهندسية لبيوت الشطرنج. و-كما يقول الدكتور عمر فروخ في حديثه عن البيروني – حل هذا الأخير مسائل تعرف بـ «مسائل البيروني» وهي لا تحل بالمسطرة والفرجار، ومنها قسمة الزاوية ثلاثة أقسام متساوية، وحساب قطر الأرض. وهو كان من أوائل العلماء المسلمين الذين برهنوا على أن سرعة النور أعظم كثيرا من سرعة الأرض. كما بحث في الثقل النوعي و "استخرج الأثقال النوعية لثماني عشرة مادة من المعادن والحجارة الثمينة بدقة بالغة" كما يؤكد فروخ. وكذلك تكلم البيروني أيضا عن كروية الأرض وعلى دورانها حول محورها من غير أن يصل إلى نتيجة حاسمة. وإن هذا الاشتغال بالقضايا العلمية، انطلاقا من خلفياتها الهندية، لم يمنع البيروني من أن يلتفت، بخاصة إلى مسألة كانت كثيرا ما تشغل بال المسلمين في حديثهم عن الهند، وهي مسألة "الأرواح وترددها بالتناسخ في العالم". ونراه هنا يقول في احد فصول كتابه هذا: "كما ان الشهادة بكلمة الإخلاص شعار المسلمين، والتثليث علامة النصارى، و الإسبات علامة اليهود، كذلك التناسخ علم التخيلة الهندية، فمن لم ينتحله لم يكن منها ولم يعد من جملتها. إنهم قالوا: أن النفس إذا لم تكن عاقلة لم تحط بالمطلوب إحاطة كلية دفعة بلا زمان، واحتاجت إلى تتبع الجزئيات واستقراء الممكنات. وهي وإن كانت متناهية فلعددها المتناهي كثرة، والإتيان على الكثرة مضطر إلى مدة ذات فسحة. ولهذا لا يحصل العلم للنفس إلا بمشاهدة الأشخاص والأنواع وما يتناولها من الأفعال والأحوال حتى يحصل لها في كل واحدة تجربة وتستفيد بها جديدة معرفة ... فالأرواح الباقية تتردد لذلك في الأبدان البالية بحسب افتنان الأفعال إلى الخير والشر ليكون التردد في الثواب منبها على الخير فنحرص على الاستكثار منه، وليكون التردد في العقاب منبها على الشر والمكروه فتبالغ في التباعد عنه. ويصير التردد من الأرذل الى الأفضل دون عكسه لأنه يحتمل

كليهما ويقتضي اختلاف المراتب فيهما لاختلاف الأفاعيل بتباين الأمزجة ومقادير الازدواجات في الكمية والكيفية. فهذا هو التناسخ إلى أن يحصل من كلتي جنبتي النفس وإعادة كمال الغرض.

أراد البيروني بهذا الكتاب أن يطور معرفة المسلمين ببقية الأديان، وقامت دراسته على عمل ميداني هو المعاينة والحكاية والمقارنة، وكان عمله بمثابة بحث استطلاعي مهد لانتشار الإسلام في الهند. انتهج في الكتاب منهجا جنبه التعصب والتعميم. فالبحث الموضوعي في هذا المجال يتطلب حسب البيروني اعتماد منهج علمي ميداني لا يقوم على المعاينة فحسب بل كذلك على الحكاية.

والبيروني رجل علم وعقل لذلك أراد أن يجعل من كتابه "كتاب حكاية" يقتصر فيه على نقل ما رآه في بلاد الهند من ظاهرات دينية وثقافية واجتماعية وما سمعه من خاصتهم وعامتهم وما قرأه في كتبهم بلسانهم وآية ذلك أن يورد كلام الهند على وجهه ويضيف ما لليونانيين من مثله لتعريف المقارنة بينهم. والملاحظ أن اختيار منهج الحكاية لم يكن اعتباطيا أو مجرد صدفة، لأن الحكاية تتعلق بالأقوال والأفعال على حد سواء، بمعنى نقل ما نراه أو نسمعه أو نقرأه بكل موضوعية وتجرد دون تغيير أو تحريف أو تضخيم أو تحقير... وهذا العمل ليس بهين لأنه يتطلب تحررا من أسر الذاكرة وتدخل العاطفة ومركزية الانتماء.

ولقد أدرك البيروني صعوبة هذا المبتغى وبين عسر تطبيق هذا المنهج على كامل الكتاب، ولكنه مع ذلك أكد التزامه به في أغلب الحالات، فالتجرد المطلق وخاصة في دراسة الأديان مطلب عسير المنال على أهميته لأن ذات الباحث وثقافته قد تحضر في دراسته، ولكن ذلك لا يمنع من اعتماد منهج حكاية يعرفنا بالآخر كما يريدنا هو أن نعرفه لا كما رسمته الذاكرة وحدّده المخيال. وحتى يتسنى له

معرفة معتقدات أهل الهند ومحاكاة ما رصده من طقوس وممارسات كان لزاما عليه أن يتطهر من كل الرواسب المعرفية المتعلقة بموضوع دراسته، وأن يقبل على علمائهم ورجال دينهم مستفسرا ومتعلما، بل نجده يصرح دون حرج "كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتي فيما بينهم وقصوري عما هم فيه من مواضعاتهم"[2] ونلاحظ من خلال كلام البيروني أن الدارس للأديان الحاكي طقوسها وتقاليدها لابد أن يعود إلى أصولها ومصادرها الحقيقية وأن يتخلص من وصاية الأوصياء ووساطة الوسطاء ولن يتحقق ذلك إلا لبس دارس الأديان لبوس المتعلم، لذا نرى مفكرنا يقبل على تعلم لغتهم وقراءة نصوصهم وترجمة نصيب وافر منها إلى اللغة العربية مبررا أسباب اختياره لما عرب من المصنفات.

لقد تنبه البيروني إلى وجود روافد مشتركة بين الذاكرات الدينية وإن اختلفت أزمنتها وأماكنها وأنساقها، ولذلك نجده في مواقع مختلفة من كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" يقارن بين ثقافة الهند وثقافة اليونان ولقد أكد هذا التمشي منذ المقدمة حينما أعلن "فأورد كلام الهند على وجهه وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقاربة بينهم[3] وكأنه لاحظ وجود تقارب بين المنظومتين الهندية واليونانية وإن باعد بينهما حيز المكان.

لا نبالغ إذا أكدنا أن البيروني التزم في مختلف فصول كتابه منهج المقارنة الذي أعلن عنه في مقدمة كتابه، فنجده في مطلع الباب الرابع: "في حال الأرواح وترددها بالتناسخ في العالم يقارن بين الديانة الهندية وبقية الأديان من خلال رموزها التأسيسية وكما أن "الشهادة بكلمة الخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية فمن لم ينتحله لم يكن منها"[4] وهذا الضرب من المقارنة يعكس قدرة على التأليف واختزال الديانات في علامات دالة عليها.

وفي نفس السياق المنهجي ربط البيروني في الباب الثالث "في ذكر اعتقادهم في الموجودات العقلية والحسية" بين مقالة الهند وما ذهب إليه أساطين الحكمة اليونانيين خاصة فيما تعلق بالفلسفة الميتافيزيقية كما شبه في الباب الرابع عند حديثه في نظرية الاستنساخ عند الهندوس كلام حكيمهم باسدو بقول للمسيح ثم ربط كلام كليهما بحكمة اليونانيين قائلا :"وقد كان اليونانيون موافقين الهند في هذا المعتقد"[5]. وهكذا نلاحظ من خلال ما توصل إليه البيروني أن التراث الديني الكوني يبطن تماثلا وإن أظهر تباينا وتناقضا.

وذهب في الباب الأول من الكتاب بذكر وجوه التباين بين المنظومتين الهندية والإسلامية وكأنه يكتشف حضارة جديدة غريبة المعالم لا يكاد يجمعها بالإسلام أي رابط وآية ذلك، وذلك لعدة اعتبارات منها أن القوم يباينونا بجميع ما يشترك فيه الأمم وأولها اللغة....ومنها أنهم يباينونا بالديانة مباينة كلية لا يقع منا شيء من الإقرار بما عندهم ولا منهم بشيء مما عندنا... ومنها أنهم يباينونا في الرسوم والعادات حتى كادوا أن يخوفوا ولدانهم بنا وبزينا وهيآتنا.

ولقد ركز البيروني في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة" على مجموعة من الصعوبات تحول في أغلب الأحيان دون دراسة الأديان دراسة رصينة وعلمية. ولعل أخطر هذه الأسباب ما تعلق منها بجهل لغة الملة موضوع الدرس. ولقد تعمق في ذكر هذا الضرب من المعوقات في الباب الأول عندما تحدث عن تباين المنظومتين الهندية والعربية الإسلامية، ونبه إلى الاختلاف في نظام اللغة ونظم الدلالة، لأنّ اللغة ليست مجرد أداة تواصل بل هي رؤية للكون وموقف منه.وهذا التباين بين المنظومتين متعدد الوجوه. فمن جهة يتسمى الشيء الواحد فيها بعدّة أسام، ويعسر الإلمام بكل الكلمات التي لها نفس الدلالة أو دلالة متشابهة. ومن جهة ثانية تنقسم لغتهم إلى مبتذل لا ينتفع به إلا السوقة وإلى مصون

فصيح يتعلق بالتصاريف والاشتقاق ودقائق النحو والبلاغة لا يرجع إليه غير الفضلاء المهرة[6] وبالإضافة إلى ذلك فهي مركبة من حروف لا يطابق بعضها حروف العربية والفارسية. وكل هذه الفروقات تجعل من فهم الثقافة الهندية من خلال مرجعية اللغة أمرا صعب التحقق بل يتعذر إثبات شيء من لغتهم بخطنا، وذلك لتباين أصوات كل لغة وهذا ما يفسر تحريف المؤلفين المسلمين والناسخين من بعدهم – عن قصد أو من دونه – لأفكارهم وكتبهم.

وعلى هذا الأساس نجد البيروني يتوقف أحيانا عند مصطلح من المصطلحات الخطيرة التي تثير عدة إشكاليات لاختلاف دلالاتها باختلاف المنظومة الدينية التي تنتمي إليها، ولعل خير مثال على ذلك ما وجدناه في الباب المتعلق بـ "ذكر اعتقادهم في الموجودات العقلية والحسية" إذ استطرد ليبحث في دلالات "الله" و"الربّ" في اللغات العربية والعبرية والسريالية من خلال ما جاء في القرآن والتوراة واستنتج أن اللغة العربية لا يمكن أن تستوعب مقولة الأبوّة كما تأسست في التقليد المسيحي لأن الولد والابن في العربية متقاربا المعنى، وما وراء الولد من الوالدين والولادة منفي عن معاني الربوبية، وعلى هذا الأساس نستنتج أنه بقدر ما نتمكن من لغة الملة التي نزمع دراستها، نكتشف أن الجهل بالآخر يؤدي إلى عدم فهمه وبناء صور واهية لا تعكس حقيقته التاريخية.

وبالإضافة إلى عائق اللغة نبّه البيروني إلى معوقات أخرى قد تحول دون فهم حقيقي لبقية المنظومات الدينية لعل أهمها التعصّب للملّة وزعم امتلاك الحقيقة مطلقا، وينجر عن ذلك ممارسة الوصاية اللاهوتية والمركزية العقدية. ولذلك عمل البيروني على محاربة هذه الذهنية بما هي ذهنية جدل وحجاج. وهذا الخيار المنهجي لا يتعلق فحسب بكتاب تحقيق ما للهند بل نجده في بقية مؤلفاته.

نلاحظ من خلال هذا التشخيص الدقيق للصعوبات الذاتية المعرقلة للمعرفة العلمية أن البيروني كان على وعي كبير بأهمية بناء الذات وتخليصها من مركبات الاستعلاء أو النقص، حتى يتيسر لها فهم بقية الأديان بعيدا عن المواقف العاطفية الانفعالية العارضة التي يجب أن لا تتحول إلى منهج نسلكه أو آلية نعتمدها، للتعرف على الآخر والتواصل معه.

اعتمد البيروني على منهج يقوم أساسا على المعاينة وتحرر من سلطة الأخبار وهيمنة أرباب الأحاديث من أهل السماع والرواية. ولذلك نجده يشكك صراحة في عدة مواضع من كتابه في بعض الأخبار، فنجده على سبيل المثال يفند عند حديثه عن "مبدأ عبادة الأصنام وكيفية المنصوبات" ما ذكره بعض الرواة بخصوص اليونان وحضارته فقال: ولا علم لنا بشيء منه ولا يجوز أن نقضي على ما لا علم لنا به[7] وكأنه يميز بين خطاب يقوم على الجهل وآخر يقوم على دراية أسسها العقل وآلتها المعاينة.

والطريف أن البيروني في دراسته كان متحركا يقترب من الظاهرة حتى يكتشفها ويحكيها أحسن حكاية ثم يبتعد عنها لينظر إليها من خارج النسق، معتمدا المقارنة، محاولا تفكيك رموزها وكشف أسرارها. إنه في حركة اتصال وانفصال يقبل كل الإقبال على موضوع بحثه حد الالتحام، ثم ينفصل عنه كل الانفصال حد الاستقلال، وهذا أدركته الدراسات الحديثة في الأديان والحضارات أن الباحث لا بد أن يقترب من موضوع بحثه حتى يفهمه، وأن يبتعد عنه في مرحلة ثانية حتى ينقده. وعلى هذا الأساس تأسست أغلب النظريات في تاريخ الأديان والأديان المقارنة...

والمتمعن في أسلوب الرجل يلاحظ بساطة تراكيبه ووضوح عبارته رغم تناوله لمنظومة ثقافية ودينية تختلف كليا حسب رأيه عن الثقافة العربية الإسلامية. والملاحظ أن صاحب "كتاب الهند" كان دقيقا في اختيار المصطلحات المركزية في المنظومة الهندية وتعريبها بطريقة تيسر تمثل القارئ العربي المسلم لها. ويبدو أن البيروني اهتم اهتماما مخصوصا بقضية المصطلح في مختلف كتبه العلمية منها والاجتماعية والثقافية. ولعل هذا الاهتمام بالمصطلح وتبسيطه يعكس منزعا تعليميا لا يمكن إنكاره في الكتاب.

إن مفكرنا هذا أسس من خلال كتابه هذا خطابا أنثروبولوجيا أو علم الأنثروبولجية، ونؤكّد كما أكد قبلنا محمد الحداد[8] أن البيروني بلغ في عصره أقصى ما يمكن أن يبلغ إليه عالم اهتم بالأديان وثقافة الآخر من موضوعية، ومما لا شك فيه أن كتاب محل الدراسة يعد وثيقة تاريخية وحضارية فريدة ونادرة تكشف عن عالم الهند قبل دخول المسلمين إليها وبسط نفوذهم عليها وآية ذلك أن ثقافة بلاد الهند ومعتقداتها تغيرت بعد الاحتكاك بالمسلمين. وإنّ المتمعن في نصوص "كتاب الهند" يلاحظ أن صاحبه آمن بأهمية العمل الميداني القائم على المعاينة بما هي ملاحظة وتدبر ومقارنة. وكان كتابه بمثابة العمل الاستطلاعي التمهيدي الذي يسر على المسلمين تمثل تلك الربوع على كل المستويات الجغرافية والثقافية والدينية، ومن ثمة فتحها وبسط نفوذهم عليها. لقد أراد البيروني أن يجعل من دراسة الآخر علما ولكنه لم يوفّق في ذلك ولم يتواصل مشروعه من بعده، ولعل السبب الرئيسي يكمن في هيمنة الثقافة الإسلامية التقليدية القائمة على السماع والنقل والتقليد في هذا المجال . وهذا يعكس طبيعة عصر صاحب "كتاب الهند" حيث تراجعت العلوم التي كانت كثيرة وبتناوب الخواطر إياها متزايدة متى كان زمانها في إقبال، وعلامته رغبة الناس فيها وتعظيمهم لها... وليس زماننا بالصفة المذكورة بل بنقيضها، إن كان ولا بد فمتى ينشو فيه علم أو ينمو ناش[9]. ولا يمكن أن ننكر أن الذاكرة الإسلامية تعاملت في عمومها مع

الآخر الذي يخالفنا المعتقد من خلال ثنائيات من قبيل "الكفر والإيمان" "الخطأ والصواب" و"الحقّ والباطل" و"المذموم والمحمود" ولو تأملنا عنوان الكتاب الذي ندرس "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" نلاحظ أن البيروني لم يستطع رغم جرأته العلمية وصرامته المنهجية أن يتجاوز ثنائية المقبول والمرذول من منظور العقل الإسلامي بما هو ذاكرة. ولو عدنا إلى معاجم اللغة لوجدنا "المرذول" صفة جامعة لأسوأ النّعوت وأبشعها. وهذا الحكم في الحقيقة عاطفي لا يتماشى مع ما عرفناه من صرامة علمية عند البيروني. وكأن بصاحبنا أراد من خلال ذلك التقرب إلى ذهنية القارئ العربي المسلم فخاطبه من خلال ثنائيات ذاكرته الدينية وجعل من عنوان الكتاب بيتا شعريا ليدغدغ ذاكرة تحن إلى الشعر وتصبو إليه.

III.قراءة في نتائج دراسة البيروني "كتاب الهند"

لقد خرج البيروني من خلال دراسته الأنثروبولوجية للمجتمع الهندي بمجموعة من النتائج والحقائق المهمة، والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- أرجع البيروني النظام الطبقي المغلق بعد وصف المجتمع الهندي وبناءه ونظمه الدينية والاجتماعية والثقافية وغيرها إلى السياسة ورسوخه في الدين. ولم يغفل ربط الظواهر ببعضها البعض.
- تعتبر القواعد والسنن الاجتماعية التي تنظم الحياة الاجتماعية بالهند صادرة عن الدين على وجه التحديد، فهو القاعدة الأساسية التي يقوم عليها النشاط الاجتماعي برمته في الهند.
- ربط البيروني انغلاق المجتمع الهندي على الشعوب باختلاف اللغة والعادات وبما يعتقده الهنود في سمو جنسهم عن بقية الأجناس.

- تعرض البيروني في دراسته للدين وعرض لأهم عناصره، وتوصل إلى وجود قوة لا تدرك بالحس في معتقدات الهنود، تشكل بالنسبة لهم معبودهم الذي خلقهم وخلق الكون وهو يشبه الله عند المسلمين ويتصف بصفاته. ولا يقتصر البيروني على ذكر اعتقاد الهنود في الله وإنما يتناول بالتفصيل عدة معتقدات أخرى مبنية على فلسفة روحية ولاهوتية تتعلق بالموجودات العقلية والحسية، وفي اعتقادهم في الأرض والسماء، وغيرها من المعتقدات الخاصة بكل شؤون الإنسان في الدنيا والآخرة وما يدور حولها من أساطير كما أسلفنا.
- ذكر البيروني ظاهرة عبادة الأصنام بين الهنود العامة والخاصة، ويشرح كيفية صناعة الأصنام ومادتها، ومن خلال الأماكن التي تقام فيها توصل إلى مجموعة من الطقوس المختلفة والتي تصل أغلبها إلى إراقة دمائهم تقربا لهذه الأصنام ليحصلوا على رضائها وتتوسط بينهم وبين مقدساتهم.
- ومن خلال مقارنته بين اللغة الهندية والعربية توصل إلى أن اللغة الهندية واسعة كما هو الشأن باللغة العربية، حيث يسمى الشيء فيها بعدة أسماء، ويقسم اللغة الهندية إلى كلام دارج مبتذل يستخدمه السوقة وإلى مضمون فصيح يتعلق بدقائق النحو لا يرجع إليه إلا الخاصية. ولكن تختلف من حيث الشكل وطريقة الكتابة فالهنود يبدؤون الكتابة من اليسار إلى اليمين على عكس الخط العربي.
- أكد أن دراسة الأديان تتطلب الإلمام بأكثر من لغة ولاسيما لغة الملة موضوع الدراسة. وهذا المنهج توخاه البيروني بكل صرامة فأقبل على اللغة السنسكريتية لغة بلاد الهند قبل زيارتها، كما أتقن استعمال لغات أخرى قراءة وكتابة من قبيل الخوارزمية والفارسية والسريالية واليونانية بالإضافة إلى العربية. والملاحظ أن صاحب كتاب الهند ذكّر القارئ في عدة مواضع من كتابه بعائق اللغة الذي يحول في أغلب الأحيان دون فهم منظومات الآخر الثقافية والعقائدية.

- **خاتمة:**

لقد أدرك البيروني بكل نضج معوّقات في دراسة الأديان وثقافة الآخر، في سياقه التاريخي الذي عاشه. ولعل ما رسخ هذه الصعوبات عبر مختلف مراحل تاريخ الفكر الإسلامي غياب التأسيس الجماعي، إذ ظلت محاولات البيروني وغيره ممن سبقه أو جاء بعده محاولات فردية طوتها القرون الخالية وفي أحسن الأحوال كانت أصوتا خافتة لا يكاد يدركها عامة الناس ولا خاصتهم. ولقد أدرك البيروني محدودية العمل الفردي، فالإنسان محدود القدرات قصير العمر كثير النسيان، وهنا تتنزل أهمية العمل الجماعي في دراسة الأديان.

لقد كان طموح البيروني المعرفي مقيدا بقيود الزمان والمكان وعجز الإنسان. وعلى هذا الأساس حاول مواصلة ما أنجزه أستاذه أبو العبّاس الإيرانشهري في هذا المجال آملا أن يواصل غيره ما أنجزه هو في مختلف كتبه. ويبدو أن عمل المجموعات لم يكن متيسرا في عصره وبيئته التي عاش فيها وذلك لعدة اعتبارات لعل أهمها ما كانت تعيشه بلاطات السلاطين من اضطرابات ودسائس انعكست على العلماء، فكان كل عالم يتقرب من السلطان ويعادي من أجل ذلك بقية العلماء.

لقد تبين لنا من خلال نصوص كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" أن صاحبه حاول رغم كثرة المعوّقات أن ينتهج منهجا صارما في دراسة الهند وكان يدرك بأن الدين جزء لا يتجزأ من منظومة ثقافية أشمل. وعلى هذا الأساس تحدث عن تمثلهم للخلق وتنظيم مجتمعهم، كما تطرق إلى مكونات الهند الجغرافية واصلا بين الثقافة والجغرافيا، وتعمق في ذكر مواقيتهم وتمثلاتهم للزمن وكما بدأ الكتاب بالحديث عن معتقداتهم ختمه بالحديث في طقوسهم وأحكام شريعتهم. لقد أدرك البيروني أهمية هذا المنهج للوصول إلى المعرفة العلمية.

عموما يقدم لنا كتاب البيروني قراءة مهمة ومتفحصة للحضارة الهندية القديمة بشتى مستوياتها، تجعلنا نواجه مشهدا واسعا متعدد البؤر والزوايا لهذه الحضارة القديمة الثرية الوافدة، وكيفية تفاعل العقل الإسلامي معها. بالاعتماد على الملاحظة المباشرة ومعايشة لهذا المجتمع.

الهوامش:

1- اللغة السنسكريتية و هي لغة قديمة في الهند وهي لغة طقوسية وهي اليوم لقد كانت اللغة السنسكريتية وما زالت في الهند في المعابد فيسمح فقط لكهنة البراهما بقراءة النصوص السنسكريتية. و هي اليوم إحدى الاثنتين وعشرين لغة رسمية للهند. تدرس في الهند كلغة ثانية.

2- البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية 11، 1908، ص20.

3- نفس المرجع، 16

4-نفسه، ص 39

5-نفسه، ص43

6-نفسه، ص17.

7- نفسه، 87.

8- نفسه، ص 68

9-نفسه، ص 107.

- المراجع

-البيروني أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية 11، 1908.

-أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي، دار المعارف، الاسكندرية، 1980.

-مصطفى عمر حمادة، دراسات أنثروبولوجية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2011.